جامعة محمد خيضر- بسكرة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الأدب العربي
مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها

ندوة أدبية حول الشاعر الراحل: محمود درويش

عنوان المداخلة :

مفارقة السخرية والتهكم في نص: « في الخطابة والخطيب » من ديوان « أثر الفراشة » للشاعر العربي الراحل: محمود درويش

إعداد الباحثة:
ليلى جغام

السنة الجامعية : 2008 – 2009

تقديم :

يعد درويش واحدا من أكبر الشعراء العرب في الوقت الراهن، وشعره من أكثر النماذج الشعرية إشراقا، تجمعت فيه عبر حياة حافلة بالمقاومة والتصدي ثلاث مراحل بارزة هي :

مرحلة الرومانسية : وقد مثلت فترة الستينات من حياته

مرحلة الإنسانية : وقد مثلت فترة السبعينات من حياته

مرحلة الوجودية والفلسفية : وقد استمرّت من الثمانينات إلى آخر حياته [1]

ولعلّ أهم ما ميّز تجربته الشعرية هو امتزاج كل مرحلة من مراحلها بمشاعر الغضب والثورة، التي ما انفكت بؤرة ومركزا لانطلاقه ضد طوفانات ثلاثة حاصرته من جميع الجهات، **الأول** طوفان الاحتلال وضياع الوطن، **والثاني** طوفان العصر الذي اختلت موازينه وقيمه ونظمه، **والثالث** طوفان الإنسان الجديد الذي ضل طريقه وأهدر قيمه وجرف في طريقه الأخضر واليابس، وأغرق كل ما تبقى من قيم الحق والعدل والحرية والاستقرار في هذا العصر الممسوخ المتطاحن الدامي [2] .

فدرويش إذن شاعر قضية قبل كل شيء، قضية وطنية ... وقضية ثقافية ... وقضية سياسية ... وقضية إبداع فني شعري ... قضية لغة وبنية شعرية، وقد استنفذ كل طاقاته في سبيل دفاعه على كل تلك القضايا

ولعلّ عاطفة الغضب والثورة التي ميّزت معظم تعابيره عن حبه للحرية ورفضه لكل مظاهر التسلّط كانت سببا في تناثر الأساليب الساخرة التي تنبئ عن تهكمه واستهزائه كرد فعل عن رفضه هذا، وغدت المفارقة في شعره وسيلة من وسائله المباشرة في إيصال إحساسه ذاك، إذ يكاد وجودها يغلب على شعره، خاصة في مرحلته الثالثة، مما كان حافزا للحديث عنها في هذا المقام، ولتمام ذلك رأينا أنه من الواجب التقديم لها في شكلها النظري على ألا نستغرق في الحديث عنها، لأن مداخلتنا هذه تتسم بالتطبيق .

مفهوم المفارقة :

المفارقة في اللغة من الفرق وهو خلاف الجمع... وفرق الشيء مفارقة وفراقا : باينه [3] .

وإذا بحثنا في تراثنا العربي وجدنا أن أول مفارقة شعرية عربية ارتبطت بأول من قصّد القصيد المهلهل بن ربيعة التغلبي وقصة قتل أخيه كليب، التي كانت نتيجة ظلم ذوي القربى، وقيل أن المفارقة هي فن بلاغي لم يعرفه العرب بهذا التحديد في المصطلح، ولكن بلغائهم عرفوا روح المفارقة فيما أدركوه من خصوصية الكلام الذي يراوغ ويهرب من تحديد المعنى أو يقول شيئا ويعني آخر [4] .

وقد أحصى علماء البلاغة عددا من الألوان التي تتطابق مع مفهوم المفارقة أو تعبّر على شكل من أشكالها، ومن ذلك أوردوا التهكم والتورية وتجاهل العارف وباب المقلوب ومخالفة الظاهر والمدح في معرض الذم أو العكس، وأخيرا الهزل الذي يراد به الجد [5] .

والمفارقة من ناحية المصطلح غربية، تعددت مفاهيمها عندهم وتنوعت اتجاهاتهم في النظر إليها وطريقة توظيفهم إياها، بدلالات تكاد لا تحصى، ولعلّ من المفاهيم والتعاريف التي نسبت لها عندهم قولهم : « إنها لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين : صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدّم فيه صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفض معناه الحرفي، وذلك لصالح المعنى الخفي الذي غالبا ما يكون المعنى الضد، وهو في أثناء ذلك يجعل اللغة يرتطم بعضها ببعض، بحيث لا يهدأ للقارئ بال إلاّ بعد أن يصل إلى المعنى الذي يرتضيه ليستقرّ عنده » [6] .

فالمفارقة إذن تنشأ من قصدية المبدع في سبيل إرباك المتلقي واستثارته لفعل ما في الغالب هو محاولة إزالة اللبس وتوضيح الغموض الذي يكتنفها، وهذا ما رمى إليه درويش في أغلب شعره، إذ تنوعت أهدافه التي يقصدها، وكثر متلقيه بمختلف مرجعياتهم وثقافاتهم .

ويتحدد تمام المفارقة بوجود عناصرها التي جعلها النقاد ثلاثة، المرسل وهو صانع المفارقة، والمستقبل وهو القارئ في أي إطار كان، والرسالة وهي المفارقة التي يضعها الصانع بقصدية معينة تترك للقارئ سلطة إيجاد تفسيرات وتأويلات عدة لها، تتمحور ضمن ما يضعه الصانع من قرائن لفظية أو سياقية مساعدة في سبيل إيصال القارئ إلى بر المعنى المخبوء والتقليل من حيرته .

أثر الفراشة ... آخر النبضات لقلب درويش :

هي نصوص جديدة آثر أن يسميها « يوميات » ، وهي مزيج من قصائد ومنثورات تجمع اللحظة الشعرية الشفيفة واللحظة المفتوحة على الحياة في معنييها اليومي والميتافيزيقي . إنها تجربة فيها من الجديد والمبتكر ما فيها من النفس الرثائي والتأمل والمواجهة. نصوصها واقعية حينا، حلمية حينا آخر، يربط بينها خيط خفي، هو خيط الجمالية الغامضة والإيقاع الحي واللغة الأليفة والساحرة في آن واحد [7] .

والنص المختار للدراسة هو من هذا النبض الذي صدر عن دار الريس في طبعته الأولى عام 2008 ، بفترة ليست بالطويلة قبل انتقال شاعرنا الراحل الرمز محمود درويش إلى الرفيق الأعلى يوم السبت 9 آب 2008 بعد 67 عاما من حياة دأب ينتقل فيها من قمة إلى أخرى أعلى منها .

بناء المفارقة في نص « في الخطابة والخطيب » :

ونص « الخطابة والخطيب » قصيدة نثرية متوسطة الطول، تتضمن عددا من الأحكام تتعلق بنص الخطبة وطبيعة صاحبها ومكامن قدرته البلاغية، وجملة ما يتصف به جمهور السامعين وما يجري من ردود تعبّر عن إعجابهم بنص الخطبة وتقدير لتميّز الخطيب وإبداع لغته بأسلوب تهكمي تناثرت فيه المفارقة هنا وهناك، ولعبت فيه أدوار ووظائف عدّة نكشف عنها فيما يأتي من وصف وتحليل لأجزاء القصيدة النثرية .

يفتتح درويش نثريته بقوله : [8]

الخطابة ، في معظمها الآن ، هي فن ابتذال

المهارة . طبل يناجي طبلا في ساحة كلما
اتسعت ، وجد الصوت متسعا لامتلاء
الصدى بضجيج الفراغ . يتلقّفه الخطيب
ليحشوه بمزيد من هباء المعنى . الصوت ،
لا الكلام ، هو السيّد مرفوعا على صدى
تحميه الأكفّ من خطر السقوط على الحقيقة .

فالشاعر يبدأ قوله بالحديث عن الخطابة وكأنه يعرّفها، وفي حديثه يظهر التعريف جديدا، مشيرا لذلك بلفظة (الآن)، ويتابع (هي فن ابتذال المهارة) ، فالفن هو الإبداع، هو جهد يبذله المبدع مخالفا لما يمكن أن ينتجه الفرد العادي، فهو ارتقاء بمفهوم الخطابة، أي أن الخطابة ليست كل كلام يقوله أي فرد وبأي مستوى، بل هي فن، ثم يفاجئ القارئ بقوله (ابتذال) ، وهو سقوط بالكلام إلى درجة دنيا من الشكل والتعبير، فالكلام المبتذل كلام لاكته ألسن العامة حتى كره فعافه استعمال الخاصة، وفي ذلك مقابلة بين الأعلى والأدنى، مفارقة بين خير الكلام وساقطه، ثم يعود إلى العلو فيقول (المهارة) ، وهي حذق بالصنعة وإدراك كامل لأسرارها .

فدرويش يجاور في تعريف واحد للخطابة بين الأعلى والأدنى ثم يعود إلى الأعلى وهكذا، وهذا إن دلّ إنما يدل على لعب الشاعر باللغة وتحكمه في مفاتيحها وقبضه على أسرارها ، وتمكنه من رصد دلالاتها ومضامينها .

ثم نتابع المقطع فنجده يضع وصفا جديدا لها في قوله (طبل يناجي طبلا في ساحة)، فهو يشبّه الخطابة أي ما يقوله الخطيب بالطبل، بطريقة يتطابق فيها المشبه مع المشبه به، على سبيل التشبيه البليغ، وفيه تتلاشى الحواجز بين المشبه والمشبه به حتى يغدوان شيئا واحدا، ولو أن ذلك يكون من باب المبالغة أحيانا، إلا أن علماء البلاغة يقولون هذا لا يتوافق كليا مع فكرة المشابهة، لأن الشبه يكون في بعض الصفات لا في كلها، ولكن المبالغة هنا مقصودة من قبل الشاعر مثلما جاء قبلها، لأن غرضه عقد مفارقات من خلال مقابلات متباعدة تخالف ذهن القارئ العادي ليصل بها إلى درجة عالية من التهكم والاستهزاء، الذي هو رد

فعلي للرفض وعدم الاستسلام، ولأن ذلك مما يباغت القارئ ويثير انتباهه، وبذلك تحقق المفارقة غرضها مثلما أشار النقاد [9] .

ثم يكمل قوله بذات النفس الذي بدأ به بل ويشتدّ أحيانا (ساحة كلما اتسعت وجد الصوت متسعا لامتلاء الصدى بضجيج الفراغ) ، وهي فقرة أخرى تعج بالمفارقات الساخرة، فالساحة إنما اتساعها بكثرة من هم فيها، فالاتساع هنا بحسب الشاعر يزيد، وحجم الساحة شيء ثابت لا يتغير في المعروف، ولكن اتساعها بتزايد ما تحويه من جمهور السامعين، (وجد الصوت) هو صوت الطبل إذا ربطناه بما يسبقه من كلام، (متسعا)، وكأن وجود السامعين وكثرتهم لا يؤثر في اكتظاظ القاعة، وهو لا يقصد هنا وجود أجسادهم بل وجود عقولهم وضمائرهم،وهذا تدل عليه عبارة (ضجيج الفراغ) ، فالفراغ عادة لا يحدث ضجيجا، ولكنها مفارقة ضدية قصد بها وجود الأجساد لا العقول، فالضجيج صادر على حركة الأجساد، والفراغ أثر العقول، وذاك تهكم يخفي تحته مأساوية وحزنا.

ويزيد من درجة المأساوية التي تشعر بالخزي في قوله(يتلقّفه الخطيب ليحشوه بمزيد من هباء المعنى) ، فالفراغ ينتقل من السامعين إلى الخطيب، وقال (يتلقفه) أي يحصل عليه بجدارة ، (ليحشوه بمزيد)، والحشو هو كلام لا خير فيه، فاضلا لا يزيد المعنى شيئا، والزيادة كثرة وتفضل، ولكن هذه الكثرة ليست سوى (هباء المعنى)، أي اللامعنى، وهي مفارقة أخرى، وجمع جديد بين الأضداد الهباء أي اللامعنى والمعنى أي الفائدة .

ويواصل درويش كلامه : (الصوت لا الكلام) ، فالصوت يسمع، والكلام يفيد، فالخطيب صوته مسموعا دون فائدة، وفي ذاك تهكم عن المعنى، ثم يصف الخطيب وصفا ساخرا (هو السيّد مرفوعا على صدى تحميه الأكف من خطر السقوط على الحقيقة) ، أي هو المبجّل مرفوعا على فراغ تحميه التصفيقات من خطر السقوط على الحقيقة، أي هو المقدّم دون قيمة، والحقيقة خطر يهاب السقوط عليه، لأنها ليست مرامه، أي أنه لا يطمح إلى إيصالها .

وما يستلخص من المقطع السابق من المنثورة أنها بنيت بكاملها على المفارقة، خاصة في شكلها اللفظي الذي يعتمد التقابل بين المتضادات شكلا ومعنى، حتى كاد الشاعر ينفصل عنها، وهي حالة يشير فيها النقاد إلى توسيع استعمال المفارقة، وهو ما يصفه المتحدث عنها أن النص يتوهج كله بالمفارقة، لتبدو كل كلمة في النص ترتبط بالمفارقة الكبرى [10](الخطابة هي فن ابتذال المهارة) ، التي تتولد عنها كل المفارقات التي تتوسع في النص بعدها .

ثم يثني درويش بقوله في مقطع موال :

الخطابة ليست ما يريد الخطيب – المهرّج قوله ،
فالصوت يسبق القول الغائب ، والخطبة
هي الغاية ...هي ما ترتجله الغريزة
من حماسة الفتك بالخصم ، وما يعجب
مشاهدي مصارعة الثيران الساديين من
نصال فارس بلا فروسية . الخطابة هي
إعداء المعنى في ساحة عامة . المبتدأ يبدأ
بعد استراحة الصوت القصيرة لارتشاف جرعة
ماء . أما الخبر المتأخر فهو متروك للارتجال
المتبختر الذي تسنده آية قرآنية أخرجت
من سياقها ، أو بيت شعر قاله شاعر في
مدح أمير أموي ظنّه الخطيب عباسيا ، فأثار
التصفيق .

ونجد درويش يتابع حديثه عن معنى الخطابة، فينفي كونها رغبة قول هذا الخطيب الذي يصفه بالمهرّج، وهو مثير الضحك، فصوته لا يعدو كونه مسموعا لا مفيدا، ثم يتجه بمعنى الخطبة اتجاها آخر في قوله(الخطبة هي ما ترتجله الغريزة من حماسة الفتك بالخصم، وما يعجب مشاهدي مصارعة الثيران الساديين من نصال فارس بلا فروسية) ، فالخطبة في وصفه لا علاقة لها بالعقل واتزانه، إنما هي غريزة يتحكم فيها الجانب الانفعالي، ويقابل في ذلك بينها وبين مصارعة الثيران، إذ المصارعة خشونة، والثيران حيوانات لا تميّز ولا تعقل، ويضيف

صفة لهذه الثيران هي السادية، التي تحمل كل الأنانية والعنف، إذ هي مصطلح نفسي يعني التلذذ بإيذاء الآخرين، ولابد أنه يشير بعبارة (مصارعة الثيران الساديين) إلى الاحتلال الصهيوني الذي صار يتلذذ بعذاب شعب بكامله يقبع تحت سلطة المستعمر الذي طال بقاؤه في أرضهم، ثم يضيف (من نصال فارس بلا فروسية) ، وهو من باب الفراغ والعدم ومفارقة القول، إذ الفروسية لا تنفصل عن الفارس، وهي عودة جديدة لمفارقة الأضداد .

ثم يصل إلى قمة المفارقة، وكأنه يستخلص من أمور عدّة فيقول : (الخطابة هي إعدام المعنى في ساحة عامة) ، وذلك إقرار بالمهزلة التي تراكمت مظاهرها من بداية المنثورة مظهرا تلو الآخر إلى أن وصلت إلى اكتمالها في صورة الإعدام، وهي نهاية تصل إلى قمة النفس الرثائي المأساوي، الذي نجده يتوزع من جديد ليصنع قمة أخرى حين يضيف درويش (المبتدأ يبدأ بعد استراحة الصوت القصيرة لارتشاف جرعة ماء) ، والأصل في المبتدأ الصدارة فلا ينتظر شيئا ولا أحدا لأنه هو الإذن بفتح الكلام، فهذا المبتدأ على خلاف غيره ينتظر استراحة الصوت الذي لا معنى له ليقتنص الفرصة للبدأ .

أما الخبر الذي هو تمام الكلام وإتمام المعنى فمتأخر على حد تعبيره قائلا : (أما الخبر المتأخر فهو متروك للارتجال المتبختر...) ، وترك الخبر من ترك المعنى الذي أشار في القمة السابقة أنه أعدم على الملأ، فلا يخاف من اعتراض أحد على ذلك، ويضع الأمور الآتية في غير أماكنها (آية قرآنية أخرجت من سياقها) و (بيت شعر قاله شاعر في مدح أمير أموي ظنّه الخطيب عباسيا) ، ووضع الأمور في غير نصابها عادة يثير الاستغراب، لكن الاستغراب هنا كان في أوج قوته فتحوّل تصفيقا لقوله (فأثار التصفيق)، وهو دلالة على الاستهزاء والسخرية والتهكم، وهو قمة أو بؤرة أخرى تحيل إلى توزع جديد يليه وصول إلى القمة والاشتداد، وهكذا كل المنثورة .

خلاصة عامة:

ختاما المنثورة كلها مبنية على المفارقة، حتى تحولت إلى مفارقة كبرى تختزل مفارقات صغرى، تتوزع في مفارقات دنيا، فالمنثورة تحوي خمس مفارقات، الأولى في قوله : **« الخطابة فن ابتذال المهارة»** ، والثانية في قوله : **« الخطابة ليست ما يريد الخطيب المصرّح قوله »** ، والثالثة في قوله : **« الخطابة هي إهداء المعنى في ساحة عامة »** ، والرابعة في قوله : **«الخطابة هي تأليب الضجر على الضجر ببلاغة الشكوى مما لحق الأمة من خطر الضجر»** ،والخامسة في قوله: **« الخطابة هي الكفاءة العالية في رفع الكذب إلى مرتبة الطرب »** ، وكل منها تتضمن مفارقات دنيا تتوزع لإيفاء حقها .

فهي أي المنثورة مما قال عنه النقاد وأسموه بقصيدة المفارقة، وهي تتّكىء على وعي الشاعر العميق بالمفارقة، هذا الوعي الذي يقوده إلى حالة من التوتر والانشطار والزلزلة التي تنعطف بخطابه منذ العنوان حتى آخر كلمة صوب آفاق من المراوغة والتفارق والتناقض... وهذا النوع من القصائد يكتسب أهمية متزايدة لأنه يشع بالمفارقة من جميع أطرافها [11] .

والنص يوحي في كل جزء من أجزائه بوعي درويش الذي وصل قمته، ويعبّر عن إدراك عميق لمعنى المفارقة ودورها فيبدع ويتفنن في توظيفها، فيصنع بذلك صورة بديعة وخالدة، مراعيا هذا القارئ الذي يستثيره ويحفّزه من جهة صنع الغرابة ومفارقة القول، وهو يرسم له الحدود ويعطيه المفاتيح لفك شفراته من خلال ما يوحي به إليه بين سطور القصيدة وما يحيله عنه من صور ومعان يبدع في اختيارها، فبورك بطن حمله، وتراب رعاه وهواء استنشقه وبلد انتمى إليها، طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جنانه .

هوامش:

[1] - فهد ناصر عاشور ، التكرار في شعر محمود درويش ، طبع بدعم من وزارة الثقافة ، عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ، 2004 ، ص 16 .

[2] - نفسه ، ص 16 ، 17 .

[3] - ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، 1994 ، مج 1 ، ص 299 .

[4] - ناصر شبانة ، المفارقة في الشعر العربي الحديث – أمل دنقل ، سعدي يوسف ، محمود درويش أنموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 2002 ، ص 28 ، 29 .

[5] - نفسه ، ص 30 – 45 .

[6] - نفسه ، ص 46 .

[7] - الديوان الأدبي والثقافي – أثر الفراشة ، كتاب جديد لمحمود درويش (موقع أنترنات)

[8] - محمود درويش ، أثر الفراشة ، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، يناير (جانفي) 2008 ، ص 228 .

[9] - ناصر شبانة ، المفارقة في الشعر العربي الحديث – أمل دنقل ، سعدي يوسف ، محمود درويش أنموذجا ، ص 77 .

[10] - نفسه ، ص 239 .

[11] - نفسه ، ص 252 .